بيرم التونسى
أميـر شعـراء العاميـة

بقلم: فاروق شوشة

كان شوقى أمير شعراء الفصحى يقول:

«لا أخاف على الفصحى إلا من أزجال بيرم».

ولم يحسن الكثيرون فهم مقولة شوقى، وظنوها تحمل هجوماً عنيفاً من شوقى، على فن بيرم الذى يسىء إلى الفصحى ويهددها، بينما عبارة شوقى ـ فى جوهرها ـ تحمل تقديراً لعامية بيرم، التى يراها مكافئة لبلاغة الفصحى ومنافسة لإبداعها.

ولا يمكن أن يكون شوقى وهو الذى أبدع العديد من قصائده بالعامية، ليتغنى بها محمد عبدالوهاب، فى مقتبل حياته الفنية ـ خصماً للعامية أو معادياً لها، وهو الذى تفوقت بعض إبداعاته بها مثل «النيل نجاشى» و«فى الليل لما خلى» على بعض قصائده الفصيحة.

وتراث بيرم التونسى ـ فى شعره ونثره ـ يقول لنا بوضوح، إن إبداع العامية هو الوجه المقابل والمكمل لإبداع الفصحى، وإن للعامية ـ فى هذا المستوى من الإبداع ـ بلاغتها الحية، ونفاذها الحاسم إلى وجدان المتلقى، وقدرتها الأكثر على التغيير والتطور والعصرية، بالمقارنة بالفصحى، الأكثر ثباتاً، والأبطأ فى معيار التغيير والتطور.

فضلاً عن أن عامية بيرم، التى تعد تطوراً حيّاً لأزجال ابن قزمان أول

زجال أندلسى فى تاريخ الأدب العربى، كانت إلهاماً رائعاً لشعراء العامية الرواد فؤاد حداد، وصلاح جاهين ومن بعدهما عبدالرحمن الأبنودى، وسيد حجاب، وأحمد فؤاد نجم، وسمير عبدالباقى وغيرهم.

فبيرم التونسى هو، الريادة الحقيقية والأب الروحى فنياً، لكل هؤلاء المبدعين الذين حملت كتاباتهم تسمية شعراء العامية، بينما ظلت كتابات بيرم توصف «بالزجل» وتحمل بصمات انتمائه إلى ديوان الشعر العربى، استيعابا وتمثلاً وقدرة على الاختراق والتجاوز.

كان بيرم ـ بحجمه الضئيل ورأسه الكبير، بركاناً من التمرد والغضب والثورة، حاداً عنيف الطبع والمزاج.

لم يكن ذلك بالمستغرب، من إنسان عاش ظروفه الصعبة المتقلبة، ومعاناته الطويلة القاسية، وحياته التى خلت من طعم الأمان والاستقرار، وكانت ثقته بالناس شبه منعدمة، كنت ألمح شواهدها من خلال مشاهدتى له فى مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين، عندما يجىء لملاقاة محمد حسن الشجاعى ـ مستشار الإذاعة للموسيقى والغناء ـ الذى تحققت على يديه وخلال عمله الإذاعى، كنوز المختارات الغنائية، ومن بينها كثير مما أبدعه بيرم، ومحمود حسن إسماعيل المستشار الثقافى للإذاعة ورئيس لجنة النصوص الغنائية.

وكان يستفزه جداً أن يهتم أحدهما ـ الشجاعى أو محمود حسن إسماعيل بأدنى ملاحظة على ما صاغه من كلمات، وكان اعتزازه الشديد بفنه، ينم عن إدراك عميق لجوهر عبقريته الفذة فى الإبداع، وعن اختلافه وتمايزه وتفرده عن كل الآخرين، وعن إحساسه بصدقه العميق مع النفس.

فهو ليس تاجراً أو مهرجاً أو لابس أقنعة، يلبس لكل حال لبوسها، لكنه أولاً وأخيراً، وطنى صادق ومكافح عنيد، وشاعر يحترم نفسه وفنه، وساخر

كبير له تعليقاته اللاذعة، وسخريته المرة من كتابات الآخرين، التى تردد مفردات اللوعة والأنين والشكوى والتباكى لأنها ـ فى رأيه ـ تفتقد عواطف الرجولة، وكرامة المحبين، وتتوسل بالضعف والهوان، وهو ما يرفضه ويأباه.

وبالمقابل فإن محمد حسن الشجاعى ومحمود حسن إسماعيل ومعهما أحمد رامى ـ فى لجنة النصوص الغنائية ـ كانوا يحملون لبيرم وفنه، تقديراً عميقاً، يضعونه فى منزله رفيعة، ومكانة عالية، وكانوا يواجهون اعتداد بيرم واعتزازه بفنه، بروح الفهم والمودة، وكثيراً ما استمعت إلى الشجاعى وهو يطالبه بالمزيد، وبألا ينقطع كثيراً عن الإذاعة، فقد كان كثير الانقطاع والتوقف خاصة فى سنواته الأخيرة، التى بدأت فيه أحواله الصحية تضطرب وتسوء.

كما كان محمود حسن إسماعيل يتبسط كثيراً مع بيرم، ويبالغ فى الترحيب به. وبأكثر مما يفعل عادة مع رامى، وعندما ذكَّرته بما كان يفعله مع بيرم ذات مرة ـ وكان ذلك بعد رحيله ـ أجابنى باعتزاز:

بيرم طينة أخرى، ليس فى فنة تَصَنُّع، ولا ترفق مفتعل، وعاميته وحشية مقتحمة، لأنها أكثر صدقاً وحياة.

كما كان الشجاعى يتغنى فى ساعات صفائه، وخلو مكتبه من طلاب الحاجات من المؤلفين والملحنين والمطربين، بقصيدة بيرم «شمس الأصيل» ويضغط على كلماتها، بصوته «الأجش» الخالى من أية قدرة على التطريب، بالرغم من قدرته الفذة على التعبير:

شمس الأصيل دهبت خوص النخيل يا نيل

تحفة ومتصورة فى صفحتك يا جميل

أنا وحبيبى يا نيل نلنا أمانينا

مطرح مـــا يرسى الهـــوى ترسى مـــراســـينا
والنـاى على الشـط غنى والقـــدود بتـــمـــيل
على هبـــــوب الهـــــوى لما يمـــــر عليل
والليـل إذا طال وزاد تقـــصـــــر ليـــاليـنا
واللـى ضنـاه الهـــــوى باكـى وليـله طـويـل

وعندمـا تغنت أم كلثوم برائعـة بيـرم «هوه صحيح الهـوى غلاب» بعـد الصلح مع الشيخ زكـريا أحمـد؛ وإنهـاء القطيعـة التى دامت بينهـمـا عشـر سنوات، كـان الشجـاعى أسعـد الناس بالأغنية كـلاماً ولحناً وأداء، وكـان يردد «أخيراً وجدت أم كلثوم القمة التى تبحث عنها».

كان هذا قبل أن تقدم أم كلثوم رائعتها «الأطلال» بعدة سنوات، ولو أن العمر امتد بالشجاعى، واستمع إلى «الأطلال» التى اكتمل فيها إبداع إبراهيم ناجى ورياض السنباطى، لكان له رأى آخر!

■■■

obeikandl.com